(٣٥) الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: قال الطحاوي رحمه الله: والإيمان: هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان.

لما تم الكلام على أصول الإيمان الستة أتبعنا ذلك حسب ترتيبنا لجُمل الإمام الطحاوي بمسألة عظيمة شريفة كبيرة: **هي مسألة الإيمان.**

والحديث عن الإيمان تارة يكون عن المؤمَن به، وتارة يكون عن حقيقة الإيمان:

فأما المؤمَن به فهو ما تقدم ذكره: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. فهذا هو الإيمان باعتبار المؤمَن به، أي باعتبار مفردات الإيمان وأصوله، وهو الذي دل عليه حديث جبريل، فإذا قال لك قائل: ما الإيمان؟ يسعك أن تجيب بما أجاب به النبي ﷺ وتقول: الإيمان: الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه... إلى آخره.

ولكن الإيمان يتناوله العلماء –أحياناً– ويقصدون به حقيقة الإيمان: يعني الحد الفاصل الذي يكون به الإنسان مؤمناً أو كافراً، فهذه الحقيقة حقيقة لابد من بيانها وفصلها حتى لا تلتبس على أحد، فالجمل التي سمعتموها كلها تتعلق **بحقيقة الإيمان، وبحكم مرتكب الكبيرة،** والارتباط بين المسألتين بيّن، لأن مرتكب الكبيرة هل ينسلخ من الإيمان ويخرج عن حقيقته؟ أم يبقى في دائرة الإيمان؟ ويترتب على ذلك قضايا أخرى تتعلق بالموالاة والمعاداة، والتكفير وعدمه، كما سنرى –إن شاء الله تعالى–.

فابتدأ الطحاوي –رحمه الله– بذكر حقيقة الإيمان فقال: والإيمان: هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان: هكذا عرّف الطحاوي –رحمه الله– تبعاً لأصحابه الأحناف الإيمان، بأنه يتكون من أمرين فقط: وهما الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، فصار متعَلق الإيمان عند الطحاوي –وعند أصحاب أبي حنيفة عموماً– هو قول اللسان واعتقاد الجنان.

وهم بهذا قد خالفوا جمهور أهل السنة والجماعة، وهذا من المواطن القليلة التي جرى بين المنتسبين إلى السنة والجماعة خلاف فيها، فجمهور أهل السنة والجماعة وعامة السلف المتقدمين ثم من تبعهم من المالكية والشافعية والحنابلة على: أن الإيمان له حقيقة مركبة من قول وعمل، فيقولون: **الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان.**

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

أما أصحاب أبي حنيفة –رحمه الله– فقد أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان، وبذلك أُطلق عليهم مرجئة، إلا أن إرجاءهم من أخف درجات الإرجاء، ويسمون عن أهل السنة: **مرجئة الفقهاء**. ويُراد بهم: فقهاء الكوفة. فكان أول من أخرج العمل عن مسمى الإيمان من فقهاء الكوفة: شيخ أبي حنيفة: حماد بن أبي سليمان –رحمه الله–، وكان من عباد الكوفة وفقهائها، **وكأنهم لما رأوا غلوا الخوارج وتكفيرهم بمطلق الأعمال قابلوا ذلك بضده،** وهذا أمر يقع ويتكرر في نشأة البدع، وهو أن تُقابل البدعة ببدعة مثلها، فينبغي لطالب العلم أن يتنبه لهذا الأمر، فإذا عالج أمراً من الأمور لا ينتقل من الطرف الأيمن إلى الطرف الأيسر، بل يقف بحد الوسط، فإن هذا الدين مبني على الوسطية، لا إفراط ولا تفريط، فلما كانت الخوراج تُخرج مرتكب الكبيرة بأدنى عمل من الكبائر، ويسلبونه وصف الإيمان: فمنهم من يصفه بالكفر: وهم الخوارج، ومنهم من يجعله في منزلة بين المنزلتين: وهم المعتزلة، قابلهم المرجئة، فقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهذه العبارة عبارة غلاة المرجئة، وليست عبارة، وليست من قول مرجئة الفقهاء، كما سنبينه –إن شاء الله تعالى–.

والمقصود في هذا المقام: أن هذا من أعظم المآخذ التي تُؤخذ على عقيدة الطحاوي –رحمه الله–، وهو قصور العبارة عن تعريف الإيمان، عن تعريف حقيقة الإيمان وماهيته ومسماه، فالحق في هذا الباب هو ما عليه أهل السنة والجماعة قاطبة، وما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع العلماء وإجماع السلف: **أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان.**

فالإيمان له حقيقة مركبة من القول والعمل، لم يزل أهل السنة والجماعة يرددون هذه الجملة: الإيمان قول وعمل. **وربما وجدت بعضهم يقول: الإيمان قول وعمل ونية.** ونحو ذلك من العبارات، وقد يُفصلون بعض التفصيل يريدون به مزيد البيان، لكنها تؤول إلى أن حقيقته مركبة من القول والعمل، ثم إن هذه الجملة العامة: وهي أن الإيمان قول وعمل، ينسدل منها خمسة بنود، **فالقول: قول القلب واللسان، والعمل: عمل القلب واللسان والجوارح، وبيان ذلك كما يلي:**

وأما قول القلب: فالمراد به اعتقاده، يعني ما يعقد عليه القلب، والعقد –كما تعلمون– بمعنى الحزم والربط والشد والجزم، فقول القلب: هو يعقد عليه القلب من المعارف واليقينيات والتصديقات، كاعتقادك بأن الله واحد لا شريك له، وبأنه أرسل رسلاً وأنزل كتباً وجعل يوماً يُجازى الناس فيه على أعمالهم: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. هذا اعتقاد، هذا قول القلب.

عمل القلب: هو ما يتحرك به القلب من الإرادات والنيات، كالمحبة والخوف والرجاء والتوكل وما شابه ذلك، فبين قول القلب وعمل القلب فرق بيّن، قول القلب تصديقه، وأما عمل القلب فهو حركته، ما يتحرك به

القلب ويقوم به من العبادات القلبية كالمحبة والخوف والرجاء والتوكل، فهذه أعمال قلبية، هذه أعمال قلبية وليست اعتقادات، وإن كان مبناها في الأصل على الاعتقادات، والاعتقاد هو الذي أنشأها وأقام فيها الخوف والرجاء والمحبة... إلى آخره.

أما قول اللسان: فالمراد به التلفظ بالشهادتين، أي الاستعلان بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فهذا شرط في الإيمان في إجراء الأحكام الظاهرة على من انتسب إلى هذا الدين، فلو أبى أحد أن ينطق بالشهادتين لم نحكم له بالإسلام، وعاملناه معاملة الكفار، لابد أن ينطق بالشهادتين، ولكن الصحيح أنه إذا أتى بأعمال الإسلام من الصلاة وغيرها ولم يمتنع عن أداء الشهادتين فإننا لا نمنعه من اسم الإسلام، لأنه لم يترك ذلك قصداً وإنما جارى المسلمين في صلاتهم وعباداتهم وهو إذا فعل ذلك فلابد له من التلفظ بالشهادتين، كما إذا قال في التحيات: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. لكن لو قال قائل –على سبيل الفرض والتقدير–: هو مسلم ولكن لم ينطق بالشهادتين. فهذا الإباء منه يكون مانعاً من وصف الإسلام.

أما عمل اللسان: فالمراد به: ما يعمله اللسان من العبادات القولية، كالذكر والدعاء وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العلم والدعوة إلى الله، أليست هذه عبادات لسانية؟ بلى، هذه عبادات لسانية، فهذا عمل اللسان: الذكر والتلاوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء وتعليم العلم وما أشبه، وكل كلمة طيبة.

عمل الجوارح: هو ما تستقل به أعضاء البدن من العبادات، كالركوع والسجود والقيام والقعود في الصلاة والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار والوقوف بعرفة وإماطة الأذى عن الطريق، كل هذه أعمال جوارح، فلذلك صار الإيمان –بهذا التعريف– شاملاً للدين كله، فلو تأملت لوجدت أن جميع خصال الدين داخلة في مسمى الإيمان، ولهذا قال نبينا ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها: قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)، دعونا نوزع هذه الشعب على ما ذكرناه آنفاً من الأمور الخمسة:

قال ﷺ: (فأعلاها: قول لا إله إلا الله): ما هذه؟ هذه تصدق على القول القلبي الذي بمعنى الاعتقاد، وعلى القول اللساني الذي يعني الاستعلان بالشهادتين، طيب، **(وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق): ما هذه؟ هذه من عمل الجوارح،** لأن الذي يحمل جذعاً ليلتقط شجراً أو زجاجاً عن الطريق قد عمل بجوارحه، طيب، **قال: (والحياء شعبة من الإيمان): ما هذه؟ هذا عمل القلب، إذ الحياء عمل قلبي،** ولهذا كلما كان القلب أكثر حياة كان أكثر إيماناً، فالقلب الحي لاحظوا المناسبة اللفظية بين الحياء والحياة، بين الحياء

والحياة، **فإنما سُمي الحياء حياء لأنه نابع عن حياة القلب**، أما القلب المتيبس، القلب المتجمد فإنه لا حياة فيه، ينبض بخوف ولا رجاء ولا توكل ولا محبة ولا غيرها، إذن هذه الأمور كلها موزعة على خصال الإيمان.

وأما إذا نظرنا في كتاب الله تعالى لنستدل على كل بند من هذه البنود وجدنا شيئاً كثيراً ودلائل لا يحصيها عد، فقول القلب الذي بمعنى اعتقاده يشهد له قول النبي ﷺ في حديث جبريل: (الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله...)، وإنما اعتبرنا ذلك عقد قلب لأنه ذكر قبله الإسلام وفسره بالأعمال الظاهرة، فتعين أن يكون هذا: الأعمال الباطنة التي هي قول القلب.

طيب، وأما عمل القلب فإن عمل القلب يشهد له حديث: (والحياء شعبة من الإيمان)، وذم الله تعالى للكفار حينما يقول: **{قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ}[النحل :٢٢]**: فوصفها بالجحود وعدم التصديق وغير ذلك من الأدلة التي تدل على عدم الطمأنينة، يعني تأمل مثلاً قول الله عز وجل: **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [الأنفال: ٢]** إِنَّمَا: أداة حصر، **{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}** وجل القلوب مم يكون؟ من عمله، **{ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الأنفال: ٢، ٣]** وهذه أعمال الجوارح.

طيب، قول اللسان ما دليله؟ يقول النبي ﷺ: (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله)، أو: (حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله)، وفي كتاب الله يقول الله عز وجل: **{قُولُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ}[البقرة: ١٣٦]** **{قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ}[آل عمران: ٨٤]** ، فالأمر بالقول يدل على ذلك.

وكذلك عمل اللسان: كل ما ذكره النبي ﷺ من أعمال لسانية من ذكر وتلاوة وغير ذلك فهو دليل عليه، وكذلك أعمال الجوارح، ومن أدلة القرآن على أن الجوارح من الإيمان وهي من أبينها: قول الله عز وجل في شأن تحويل القبلة: **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}[البقرة: ١٤٣]** أي صلاتكم، وذلك أنه لما حُولت القبلة بعد نحو ستة عشر شهراً من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وكان ﷺ في مكة –كما تعلمون– يجعل الكعبة بين يديه، يعني يصلي بين الحجر الأسود والركن اليماني ويتجه شمالاً، فتكون الكعبة بين يديه، فهو متجه للكعبة ولبيت المقدس في آن واحد، فلما هاجر إلى المدينة وصارت الكعبة منه بظهر، كان لابد أن يستدبرها ويتجه إلى بيت المقدس، وصار يقلب طرفه في السماء يشتهي أن يُحول إلى قبلة أبيه إبراهيم، حتى أنزل الله تعالى الآيات: **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}[البقرة: ١٤٤]** ، وحصل تحويل القبلة بعد نحو ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من الهجرة، فقال ناس من الصحابة: ما بال إخوان لنا ماتوا إلى غير

القبلة؟ فقال الناس: بطل عملهم. أو: ذهب إيمانهم. قالوا: ذهبت صلاتهم. أو: ضاعت صلاتهم. فأنزل الله تعالى دفعاً لهذا التوهم فقال: **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}**، فسمى الصلاة إيمان، وقد عقد الإمام البخاري –رحمه الله– في صحيحه في كتاب الإيمان، وهو الكتاب الذي بعد كتاب بدء الوحي ذكر –رحمه الله– أبواباً متعددة، باب ما جاء في أن كذا وكذا من الإيمان، باب ما جاء في أن كذا وكذا من الإيمان، وعدّ خصالاً كثيرة، وقال الإمام البخاري –رحمه الله–: أدركت نحو ألف عالم في البلاد –يعني في المشرق والمغرب– **كلهم يقول: الإيمان: قول وعمل ويزيد وينقص**. فقد أجمع أهل السنة والجماعة على هذا الأمر، ولم يُعلم لهم مخالف –كما أسلفت– إلا حينما قال بعض **فقهاء الكوفة: إن الإيمان: قول باللسان واعتقاد بالجنان، والأعمال من ثمرات الإيمان ولازمه.**

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.